



البناء الأسلوبي للإيتوس

في نماذج من رسائل الجاحظ

**Stylistic Construction of Ethos
in Examples from Al-Jahiz's letters**

حسن الطويل

جامعة عبد المالك السعدي بتطوان (المغرب)، Attaouil_hass@hotmail.fr

ملخص:

يمكن للأسلوب أن يكون مدخلا مهما لتحليل الإيتوس، وكشف الكيفيات التي يُبنى بها في الخطاب، وما حاولناه في هذا البحث، يتمثل في مساءلة هذه العلاقة الجامعة بين المكوّنين الإقناعيين المذكورين (الإيتوس - الأسلوب)، في أفق التوضيح الدقيق لإسهام الأسلوب في إحياء بصورة المتكلم داخل الخطاب. وقد اتخذ البحث نماذج من "رسائل الجاحظ" نصوصا تطبيقية، تمكّنه من التفاعل مع الإشكالية المذكورة، لأنها تتميز بطابع حجاجي واضح، والجاحظ يسعى فيها إلى الإقناع، باستخدام أدوات حجاجية كثيرة، على رأسها تشكيل صور الذات القادرة على التأثير في المتلقي، واستدراجه إلى تقاسم الرأي مع المتكلم. وفي سبيل تنزيل هذا الطموح التحليلي، عالجت ثلاث صور يحاجج بها الجاحظ في بعض رسائله، وهي: صورة العالم المُتمكّن - صورة المتواضع - صورة الضحية.

المؤلف المرسل: حسن الطويل، الإيميل: Attaouil_hass@hotmail.fr

البهاء الأسلوبى للإيتوس، في نماذج من رسائل الجاحظ _____ مجلة فصل الخطاب
كلمات مفتاحية: إيتوس؛ أسلوب؛ خطاب؛ الإقناع؛ المتكلم؛ الجاحظ؛
المتلقي.

Abstract:

Abstract : Style can be an important entry point for analyzing Ethos and unveiling the ways discourse is constructed. This paper questions this dialectic relationship between the two aforementioned persuasive components (Ethos - Style) with the purpose of clarifying the contribution of the style in suggesting the image of the speaker in discourse. In doing so, this research selects examples from "Al-Jahiz's letters" applied texts since they are of a clear argumentative nature. Al-Jahiz seeks to persuade in his letters, using many arguments, on top of which is the formation of self-images capable of influencing the recipient and drawing him into sharing opinion with the speaker. In order to materialize this analytical ambition, we dealt with three images that Al-Jahiz used in some of his letters, namely: the image of the capable, the image of the modest- the image of the victim .

Keywords:

Keywords:

Ethos, style, discourse, persuasion, speaker, Al-Jahiz, recipient .

مقدمة:

يروم هذا البحث تحديد البنية الأسلوبية التي تتشكل من خلالها صور الإيتوس في نماذج من رسائل الجاحظ، وهذا المسعى التحليلي ينقلنا إلى فحص استراتيجية الإيتوس داخليا، ويساعدنا على تحديد العلاقة بين مكونين كبيرين في عملية الحجاج، وهما الأسلوب وصورة الذات المتشكّلة خطابيا.

والحق أن من يتتبع أغلب الدراسات التي عُنيت بتحليل الإيتوس في الخطاب، يجدها تغفل هذه العلاقة الترابطية المهمة، وتقتصر على نقل آثار صورة الذات في الخطاب بطريقة تفصيلية تهتم بالمضمون دون البنية، وما نحاوله هنا، يتمثل في الاعتناء بهذه البنية، ومحاولة المسك بالإيتوس من خلالها.

انطلاقا من هذا الباعث المنهجي، سنحاول دراسة ثلاثة إيتوسات يظهر بها الجاحظ في بعض رسائله، وهي: إيتوس العالم المتمكن - إيتوس المتواضع- إيتوس الضحية، والإشكالياتان اللتان وجهتا عملنا في هذا الباب هما:

كيف يساعد الأسلوب على تشكيل هذه الإيتوسات ؟ وما حدود العلاقة بين بلاغة العبارة وبلاغة الصورة (صورة الذات) داخل النسيج الخطابي لرسائل الجاحظ؟

1- مداخل تأطيرية:

نقصد بصورة المتكلم بناء على ما جاء في النظرية الحجاجية، ما يتلفظ به المتكلم من عبارات يروم بها بناء صورته الأخلاقية الجيدة من منطلق أن الخطاب يكتسي المصدقية إذا كان المتلفظ به جديراً بالثقة¹.

ويُذكر أن صورة الذات المتكلمة لا تعكس واقعا شخصيا معينا، بل تُشيد داخل الخطاب، وتُشكل تفاصيلها بطرق حجاجية ملائمة (إيتوس خطابي)، ويكون هدفها التأثير في المخاطب واستمالته إلى الدعوى، مع أننا لا ننكر أن صورة الذات قبل نشوء الخطاب تؤثر هي الأخرى في عملية الإقناع².

وعلى العموم فإن "المتكلم، سواء أكان شخصا حقيقيا أم صورة خطابية، ليس ذاتا منفصلة عن خطابها، أو مجرد وسيلة للتلفظ به أو نقله إلى الآخر، بل إنه الوجه الآخر له؛ فلا يمكن تلقي [...] الخطاب بمعزل عن الصورة التي تكونت في ذهننا عن المتكلم، سواء أكانت نتيجة معرفة مسبقة عنه، أم كانت نتيجة انطباعات تشكلت في أثناء تلقينا لهذا الخطاب. وبناء على كل هذا، يكتسب الخطاب قيمته وفعاليتيه من السلطة التي يحظى بها المتكلم، ومن السمات التي تحدد هويته في وعي السامعين؛ فقيمة الخطاب مستمدة من قيمة صاحبه، وتأثيره في السامعين مستمد من تأثير صورته فيهم"³.

وإذا انتقلنا للحديث عن الإيتوس في رسائل الجاحظ، فإن أول ملاحظة يمكن إيرادها، تتمثل في أن الجاحظ كان يستخدم هذا الرافد الإقناعي اعتمادا على استراتيجيات لها علاقة بنوع الرسالة وأهدافها ومن توجه إليه، وهذا ما يعني أن توظيف الإيتوس، يتأثر بمعطيات سياقية لها علاقة بنوع الخطاب، وبفضائه التواصلية.

ومن الأمور التي تثبت تعدد استراتيجيات توظيف الإيتوس في رسائل الجاحظ، أننا نقف في بعض الأحيان على عبارات تنوه بذات المتكلم، وترفع مقامها بشكل مباشر، وتارة نجد إشارات ضمنية تقود المتلقي إلى تقدير صاحب الخطاب، وتارة أخرى يقدم الجاحظ نفسه في صور عاطفية تملك التأثير في المتلقي، مثل صورة الرجل المتواضع، أو صورة المؤلف الضحية، أو صورة الغيور على أمور لها قيمة في الوجدان الجماعي (الدين _ الأمة _ العلم _ القيم الأخلاقية...).

البناء الأسلوبى للإيتوس، **في نماذج من رسائل الجاحظ** _____ مجلة فصل الخطاب

والواقع أن القاسم المشترك بين كل الاستراتيجيات المذكورة، هي تلك الجهود التي يقوم بها الجاحظ في سبيل إظهار صورته الخاصة (بوصفه متكلمًا) في حلة تمكنه من بلوغ أهدافه الإقناعية؛ فالإيتوس مكون لا غنى عنه في الخطاب الإقناعي؛ إذ لا تملك حجج اللوغوس إمكانية الإقناع وحدها، لأن التخاطب الإنساني لا يخلو من العواطف والتمثلات وتأثيرات صور الآخرين علينا، فقد نتأثر بصورة القائل وهو يقول، أكثر من تأثرنا بما يقول.

2- صورة العالم المتمكن:

في رسالة "الرد على حجج النصارى"⁴، كان الجاحظ على موعد مع الرد على الشبهات التي يثيرها النصارى في صفوف عوام المسلمين، من أجل التشويش على عقيدتهم، وذلك ما دفعه إلى تقديم نفسه في صورة المتكلم الحاسم والمفحم لخصومه (العالم المتمكن)؛ ليزيد بذلك حجته قوة وتمكينًا.

يقول الجاحظ للمخاطب الذي التمس منه التعقيب على مسائل النصارى: "وسنقول في جميع ما ورد علينا من مسائلكم، وفيما لا يقع إليكم من مسائلهم، بالشواهد الظاهرة، والحجج القوية، والأدلة الاضطرارية، ثم نسألهم بعد جوابنا إياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاض قولهم، وانتشار مذهبهم، وتهافت دينهم"⁵.

يرسم هذا النص للمتكلم صورة قوامها القدرة على إفحام الخصوم، وتعجيزهم، وكشف الزيف الذي يعتري حججهم. وقد تشكلت هذه الصورة عبر بناء أسلوبى - حجاجى، حاول من خلاله الجاحظ، تقديم وعود للمخاطب بشأن ما سيقدمه في الرسالة من ردود وتوضيحات حجاجية مفحمة. ومن عناصر هذا البناء الأسلوبى:

- اعتماد ضمير المتكلم الجماعي الذي يوحي بالرفعة وعلو الشأن في سياق النص:

سنقول - علينا - نسألهم - جوابنا...

- الوصف التفخيبي لحجج المتكلم: الظاهرة - القوية - الاضطرارية. والوصف هنا

ينهل من معجم له علاقة بالوضوح وسائر الدلالات التي تجعل الحجة جلية ومؤثرة.

- تقديم الوعود في صورة الحكاية: فقد ذكر الجاحظ ما سيحصل في محاججته

للنصارى عبر سرد تصاعدي يُفضي بالخصوم إلى الإقرار بضعف حججهم، وفي هذا الصدد يأتي حرفا العطف (الواو، ثم)، وحرف "السين" الدال على الاستقبال (سنقول)، لتنظيم هذا التقديم الحكائي- الحجاجي.

وهذه الاختيارات الأسلوبية - كما يبدو - توحى بإيتوس الجاحظ القوي، والذي من شأنه طمأنة القارئ على أنه بصدد القراءة لمحاوِّج قادر على إبطال حجج النصارى وإظهار نقائصها؛ فالمتلقي العام الذي تُخاطبه الرسالة، يُقاسم المتكلم اختياراته العقدية، وينتظر ما يشهد على تهاافت حجج النصارى وضعفها.

ولصورة العالم المتمكن، أو ما يجري مجراها؛ مثل صورة العالم المشهور، حضور في رسائل الجاحظ الأخرى؛ ففي رسالته "رسالة إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب"⁶، يذكر الجاحظ لمخاطبه أنه قد نسخ له في مقدمة الرسالة قصيدة قيلت في مدحه، "ذكروا أن قائلها رجل يكنى أبا عثمان [...]"⁷. وهذه القصيدة من قول الجاحظ⁸، وإن كان لم يصرح بذلك في مرحلة الاستهلال لدواع إبداعية؛ فقد فتح تساؤلا واسعا أحصى فيه جميع المشاهير الذي يحملون كنية (أبو عثمان) التي هي كنيته أيضا، من خلال قوله: "لا أدري أهو أبو عثمان هشام بن المغيرة، أم أبو عثمان عفان بن أبي العاص..."⁹.

وكما هو واضح، فإن هذه التساؤلات البديعة قد صيغت في نمطين أسلوبيين، الأول يتكرر فيه أسلوب النفي (لا أدري)، ثم يعقبه استفهام يفيد التعيين (أهو فلان...؟) يعمل الجاحظ على توسيعه بواسطة الأداة (أم) التي أتاحت له إحصاء عدد كبير من الشخصيات التي تحمل الكنية المذكورة. أما النمط الأسلوب الثاني، فإن الجاحظ يستعمل فيه أسلوب النفي بطريقة منتظمة وفريدة. يقول: "والذي لا أشك فيه أنه لم يقرضها أبو عثمان عمرو بن حزرة، ولا أبو عثمان عمرو المخلخل، ولا أبو عثمان إبراهيم بن يزيد المتطبب، ولا أبو عثمان سعيد بن حيان البزاز"¹⁰. ينفي هذا الملفوظ شك المتكلم في أن الشخصيات المذكورة لم تقرض القصيدة، وهذا ما يجعل التساؤل مستمرا والإجابة مؤجلة.

ومن بين كل المشاهير الذين ذكروهم الجاحظ في تساؤله المفتوح، تساءل؛ (باستعماله أسلوب التجريد) هل يكون صاحب القصيدة "أبو عثمان" عمرو بن بحر الجاحظ؟ وقد أراد المتكلم بهذه الاستراتيجية الحجاجية تشكيل صورة العالم المشهور لنفسه؛ فقد ساوى نفسه بأولئك المشاهير المذكورين، وأغلبهم يمثلون القدوة في المجالات التي عُرفوا فيها؛ فمنهم العلماء والشيوخ والشعراء... ولا شك أن المخاطب المعني بهذه المقدمة الإبداعية، سيندفع إلى قراءة القصيدة التي قيلت في مدحه، والتي عمل الجاحظ على رفع قيمتها حين أوهمنا بإمكانية نسبتها إلى عدد من الشخصيات الوازنة في مجالات الأدب والعلوم والشعر.

البناء الأسلوبى للإيتوس، **في نماذج من رسائل الجاحظ** _____ مجلة فصل الخطاب

وبصفة إجمالية، فإن هذه الرسالة تندرج ضمن كتابات الجاحظ الأدبية، وصلتها بالحجاج لا ترقى إلى درجة رفيعة. وما قلناه عن وظيفتها الحجاجية المستمدة من الإيتوس المذكور، ضرب من التأويل، على اعتبار أن "التحليل البلاغي [...] نوع من التأويل الذي يستلهم مقاصد (افتراضات) المنشئ"¹¹.

وقد يستقيم القول إن هذه الرسالة زاوجت بين الإمتاع والإفادة؛ فقد أمتعت القارئ بالقصيدة، وبأسلوب تقديمها الفريد، كما أفادته بمعرفة تمثلت في إحصاء عدد كبير من العلماء والشيوخ والشعراء من الذين يحملون كنية "أبو عثمان". أو قل إن الجاحظ، كما هي عادته، يقدم الفائدة بمتعة أساسها جمالية الأسلوب والتفنن في العرض وبناء الخطاب. وفي ثنايا هذه الجمالية الأسلوبية يمكن، على سبيل التأويل الحجاجي، استجلاء صورة الإيتوس المبيّنة.

بالإضافة إلى ما تقدم، نسجل أن وجوها أسلوبية محددة حصل توظيفها في مقام تشكيل صورة "العالم المتمكن"، مثل أسلوب النفي الذي يراد به الاستقصاء. ففي رسالة "خلق القرآن"¹² يستجيب الجاحظ لطلب مخاطبه حول تأليف كتاب كلامي يعالج الشكوك العقدية والشبهات دون اللجوء إلى التطويل والتعقيد بقوله: "كتبت لك كتابا، أجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على كل طعان. فلم أدع مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام ولمن نجم بعد النظام [...]"¹³. ففي هذا النص يؤكد الجاحظ أنه لم يغفل التعقيب على مسائل جميع الفرق المخالفة. وهذا ما يفيد أنه عمد إلى استقصاء جميع الجوانب المرتبطة بالموضوع بالاطلاع وتفنيده ما لا يوافق النظر الصحيح والاستدلال السليم. وتكرار أسلوب النفي بالطريقة المتقدمة يؤدي معنى التوكيد؛ فالمعنى الحجاجي لأسلوب النفي تؤكد عبر التكرار والاستقصاء¹⁴.

وإلى جانب النفي، يوظف الجاحظ أسلوب الوصف للإيحاء بصورته الذاتية؛ ففي رسالة "تفضيل النطق على الصمت"¹⁵ يستعمل الجاحظ أوصافا حجاجية يؤكد بها عزمه على التعقيب على أطروحة صاحب الصمت بالحجة القوية. يقول: "وإني سأوضح ذلك ببرهان قاطع، وبيان ساطع [...]"¹⁶. وواضح أن هذه الأوصاف تحمل قوة حجاجية تتوكل على العمق الاستعاري. فوصف البرهان بالقاطع ينقلنا إلى مجال الحرب حيث القوة المادية والقدرة على حسم المعركة؛ فهذا الوصف مرتبط بالسيف في التعبير الحقيقي¹⁷، ودلالته

تشير إلى الصرامة والقوة والردع، فإذا قمنا بنقله إلى البرهان نحتفظ بدلالته الأصلية لتأدية الوظائف الحجاجية المقصودة. أما وصف البيان بالساطع فيحمل هو الآخر عمقا استعاريا حجاجيا؛ لأن استحضار معنى السطوع المادي يساعد الأذهان على تصور درجة وضوح البيان الذي سيعقب به الجاحظ على حجة صاحب الصمت.

ومن الواضح أن الملفوظات التي يستعملها الجاحظ لتشكيل صورة "العالم المتمكن" لنفسه تأتي على شاكلة وعود، وهذا ما يجعل وقوعها في مقام المقدمة مناسباً وناجعا.¹⁸ وجدير بالذكر أن هذه الوعود تؤدي وظيفتين مترابطتين، الأولى تتمثل في تفخيم صورة صاحب الوعد (الجاحظ) في ذهن المخاطب عبر صفات المقدرة العلمية والتمكن والذكاء والتميز الاستثنائي، أما الثانية فتتحدد في دفع المخاطب إلى التمسك للاطلاع على فحوى الرسالة والاستمرار في القراءة¹⁹. وهذا الترابط بين الوظيفتين المذكورتين يصب في مصلحة الخطاب؛ إذ يساعده على تحقيق مقاصد الإقناع والتأثير والانتشار.

3- صورة المتواضع:

يوهنا سلوك المتواضع (إذا لم يكن متكلفاً) أنه يظهر الذات الإنسانية في صورة ضئيلة. والحق أنه يترك أثراً إيجابياً في عيون الآخر، ويدعونا جميعاً إلى تقدير الذوات التي تغض الطرف عن محاسنها. ولعل مصدر هذا الإيهام انطواء المتواضع على معنيين يصعب الفصل بينهما؛ معنى التقليل من شأن الذات، ومعنى تقدير الذات (من طرف المتلقي) على نأيها عن سلوكات التفاخر السلبية.

ونحن إذ نعالج صورة المتواضع بوصفها "إيتوسا" اعتمد عليه الجاحظ من أجل تشكيل صورته الذاتية اللائقة في مقدمة الخطاب، فإننا نفعل ذلك بعدما تبين لنا أن سلوك المتواضع يستبطن في مستوى التلقي طاقة حجاجية قادرة على تجويد صورة الذات المتكلمة في مشاعر المخاطب.

يقول الجاحظ في رسالة "في مدح النبيذ وصفة أصحابه": "أنا - أبقاك الله - الطالب المشغول، والقائل المعذور، فإن رأيت خطأ فلا تنكر فإنني بصدده وبعرض منه، بل في الحال التي توجبه، والسبب الذي يؤدي إليه. وإن سمعت تسديدا فهو الغريب الذي لا نجده. اللهم إلا أن يكون من بركة مكاتبك، ويمن مطالبتك [...]"²⁰.

ينطوي هذا النص على صفات يقدم بها المتكلم نفسه، وهي "الطالب المشغول والقائل المعذور"، وقد ربط الجاحظ ربطاً منطقياً بين هذه الصفات وبين جملة الشرط

البهاء الأسلوبى للإيتوس، في نماذج من رسائل الجاحظ _____ جملة فصل الخطاب
الموالية: "فإن رأيت خطأ فلا تنكر فإني بصدده وبعرض منه". ومن الواضح هنا أن جواب
الشرط (عدم الإنكار) يتقوى حجاجيا بتقديم الذات من خلال قيم التواضع؛ فلا يمكن أن
ينكر المخاطب شيئا على متكلم أقر بتواضعه.

ومن الملاحظ أن الجاحظ قد استعمل التوكيد (فإني بصدده منه...) لإثبات إمكان
وقوعه في الخطأ، وإمعانا في ترسيخ صورة التواضع عن نفسه، يوظف جملة شرطية أخرى
يجمع فيها بين التواضع وتفيخم صورة المخاطب: "وإن سمعت تسديدا فهو الغريب الذي لا
نجاه". هنا يصف الجاحظ، من خلال علاقات أسلوب الشرط، ما يقوله من كلام سديد
بالغريب، ثم يستدرك بقوله: «اللهم إلا أن يكون من بركة مكاتبتك، ويمن مطالبتك [...]».
فإذا كان التواضع سلوكا ذاتيا، فإن ارتباطه بالآخر أمر ضروري؛ فهنا يتواضع الجاحظ
لمخاطبه بنسبة المحاسن إليه، ونفيها عن نفسه.

ولعل (إيتوس التواضع) يوافق مقاصد الجاحظ في رسالة "مدح النبيذ"، لأنه كان
بصدده توجيه العتاب إلى مخاطبه الحسن بن وهب على ما ظهر منه من تقليل لشأن النبيذ:
"ولا يعجبني ما رأيت من قلة إطنابك في هذا النبيذ، وقلة تلهيك بهذا الشراب وأنت تجد من
فضل القول وحسن الوصف ما لا يصاب عند خطيب، ولا يوجد عند بليغ [...]"²¹. ومن
أجل تلطيف هذا العتاب، رأى الجاحظ أن تواضعه لمخاطبه استراتيجية من شأنها أن
تجنبه محاذير التواصل (غضب المخاطب). ومن هنا نسجل، أن الإيتوس والباتوس (وهما لا
ينفصلان إلا في الحديث النظري المحض) من الاستراتيجيات التي يعتمد عليها الجاحظ في
مقام توجيه العتاب.

4- صورة الضحية:

تروم هذه الصورة التأثير في مشاعر المخاطب بدعوته إلى التعاطف أو الإشفاق أو
التضامن. ومن المهم الإشارة إلى أن صورة الضحية في الخطاب تُبذل من أجلها جهود
حجاجية كبيرة، ولا تنقل ما هو موجود في الواقع فقط؛ فمن يقدم نفسه ضحية، وقد لا
يكون كذلك في الواقع، يسعى إلى تحقيق أهدافه الحجاجية الخاصة، ومعنى ذلك أنه يبذل
جهدا حجاجيا يستخدم فيه أدوات الإقناع الملائمة. وبصورة إجمالية؛ يُعد تقديم الذات في
صورة الضحية عملا حجاجيا يُقصد به إثبات وقوع الذات المعنية تحت الظلم والحيث
والتجاوزات. فما هي الأساليب البلاغية التي يوظفها الجاحظ في مقام تشكيله لهذه
الصورة؟

جاء في رسالة الجاحظ "الجد والهزل"²² الموجهة إلى محمد بن عبد الملك: "جُعلت فداك، ليس من اختياري النخل على الزرع أقصيتني، ولا على ميلي إلى الصدقة دون إعطاء الخراج عاقبتني، ولا لبغض دفع الإتاوة والرضا بالجزية حرمتني.

ولست أدري لم كرهت قربي، وهويت بعدي، واستثقلت روحي ونفسي، واستطلت عمري وأيام مُقامي؟ ولم سرتك سيئتي ومصيبتي، وساءتك حسنتي وسلامتي؟ حتى ساءك عزائي وتجملي، بقدر ما سرك جزعي وتضجيري، وحتى تمنيت لو أخطئ عليك، فتجعل خطائي حجة لك في إبعادي، وكرهت صوابي فيك خوفا من أن تجعله ذريعة إلى تقريبي"²³.

نفهم من هذا النص أن المتكلم تعرض للإقصاء من مخاطبته، الأمر الذي دفعه إلى كتابة هذه الرسالة للاستفسار عن أسباب هذا الإقصاء ودوافعه، لاسيما أنه تحول إلى حقد وضيغينة. فحسب الجاحظ يحاول محمد بن عبد الملك متكلفا أن يُوجد الأسباب التي تسوغ إقصاءه الظالم وتجعله مشروعاً ومستحقاً، أما الواقع فإن الحقد وغلbian الصدر هما سبب التعبير عن النفور وفساد العلاقة. جاء في الرسالة: "والدليل على شدة غيظك وغلbian صدرك، قوة حركتك، وإبطاء فترتك، وبعد الغاية في احتيالك"²⁴. ولعل تعرض المتكلم لهذا الظلم غير المفهوم كان سببا كافيا لدفعه إلى تقديم نفسه في صورة الضحية.

وقد استهل الجاحظ كلامه في الرسالة بالدعاء "جعلت فداك"، ثم شرع في إنكار جميع الأسباب التي يمكن أن نفترض وقوفها وراء الإقصاء: "ليس من اختياري النخل على الزرع أقصيتني، ولا على ميلي إلى الصدقة دون إعطاء الخراج عاقبتني، ولا لبغض دفع الإتاوة والرضا بالجزية حرمتني". واللافت هنا أن الجاحظ يقدم الظلم الذي لحقه في صور متعددة: أقصيتني - عاقبتني - حرمتني، من أجل تأكيد قساوة التعامل الذي تعرض له. وقد زاد تناسق عبارات النفي واختتامها بأفعال تنتمي إلى دائرة الإقصاء من تأثير كلام الجاحظ في النفوس.

وقد استمر الجاحظ في استعماله أسلوب النفي، وهذه المرة في نفيه العلم بالإجابة عن عدد من الأسئلة المحيرة: "ولست أدري لم كرهت قربي، وهويت بعدي، واستثقلت روحي ونفسي، واستطلت عمري وأيام مُقامي؟ ولم سرتك سيئتي ومصيبتي، وساءتك حسنتي وسلامتي؟".

تسير هذه الأسئلة في اتجاهين اثنين:

_ لماذا يقصي محمد بن عبد الملك الجاحظ ويتمنى له الضرر والهلاك؟

البناء الأسلوبى للإيتوس، **في نماذج من رسائل الجاحظ** _____ مجلة فصل الخطاب

_ ولماذا يسيئه أن يرى الجاحظ سالماً...؟

يكشف هذا التقابل بين السؤالين الأساسيين تحامل المخاطب على الجاحظ. وتصيب المقابلات الدلالية في عبارات النفي أعلاه في المعنى الحجاجي ذاته: كرهت قربي ≠ هويت بعدي _ استثقلت روعي ≠ استطلت عمري _ سرتك سيئتي ≠ ساءتك حسنتي. ويفيد نفي الجاحظ علمه بأجوبة الأسئلة تعرضه لظلم لا تُعلم أسبابه، على غرار من "يرى العداوة لا يرى أسبابها". وقد ترك المتكلم للقارئ حرية النظر والاستنتاج ولم يبين له - في هذا المقام - سبب الحيف الذي يتعرض له بعد نفيه أن تكون الأمور المذكورة في الأسئلة هي السبب؛ لأن ما سيصل إليه القارئ باستنتاجه الخاص (الحقد المجاني) سيكون له بالغ الأثر في دفعه إلى إبداء التعاطف مع المتكلم (الضحية).

وُسجِّل هنا، أن أسلوب "تجاهل الإجابة" في مقام الشكوى يُقصد به تأكيد دعوى التعرض للظلم أو غيرها من الدعاوى الشبيهة المشروطة بسياقاتها الخاصة، كما قد تؤكد دعوى افتقار الخصم إلى الحجة التي تسوغ أقواله أو أفعاله، وأن ما يصدر عنه لا يؤيده أي تفسير ما عدا الإصرار على التماسي في الخطأ، ومثال ذلك قولنا: "لا أدري لم تصر على التصرف بهذه الطريقة؟" أو "لا أدري لم تقول هذا الكلام الجارح؟".

عقب النفي سيعمل الجاحظ على إثبات التحامل والسعي الحثيث إلى توفير أسبابه بقوله: "[...] حتى ساءك عزائي وتجملي، بقدر ما سرك جزعي وتضجري، وحتى تمنيت لو أخطئ عليك، فتجعل خطائي حجة لك في إبعادي، وكرهت صوابي فيك خوفاً من أن تجعله ذريعة إلى تقريبي".

ومن وسائل إثبات التحامل في هذا النص، تقديم أفعال المخاطب في صورة التقابل (ساءك ≠ سرك)؛ فرغم التقابل الضدي بين هذه الأفعال فهي تصب في معنى التحامل والضعفينة والتريص بالمتكلم، وكأن المخاطب لم يترك مدخلا إلى الحقد على الجاحظ إلا ولجه. ولا ننسى هنا أن الصياغة الجمالية لها دور بالغ في إثبات التحامل خاصة، وصورة الضحية عامة، ومن وجوهها في النص أعلاه تناسق العبارات وترتيبها واختيار الكلمات المتقاربة في الوزن والأصوات: (عزائي وتجملي _ جزعي وتضجري...)، وهناك أيضا المقابلات الدلالية وقدرتها على توجيه الفهم والتحكم فيه؛ إلى درجة أننا نستطيع تلخيص كلام الجاحظ في شأن "إيتوس الضحية" إلى مقابلات واضحة: (كرهت تقريبي ≠ هويت إبعادي) _ (سرتك سيئتي ≠ ساءتك حسنتي). ونؤكد على أن هذه المقابلات لها وظيفة حجاجية بالغة

الأهمية، بحكم أنها تنظم استقبال القارئ للمعلومة وتوجه ذهنه إلى الاقتناع بواقعية صورة الإيتوس المقدمة.

ويظل مقام تشكيل "إيتوس الضحية" قريبا جدا من الخطاب الأدبي، بل إن طاقته الحجاجية مستمدة في الأساس من مبادئ الصياغة الجمالية، لأن هذا الإيتوس يستهدف العاطفة قبل العقل، والكلام الذي يملك القدرة على التأثير في العواطف من اللازم أن يتوفر على قدر مناسب من جمال العبارة وحسن التصوير. وتجدر الإشارة إلى أن "إيتوس الضحية" لصيق بالخطابات الأدبية (الاحتفالية). فكثيرا ما نقف في قصائد الشعر (أدب الأطروحة خاصة) على ملامسة العواطف والدعوة إلى الإشفاق على وطن محتل أو أمة منكوبة أو شخص مظلوم. ويمكن أن نستحضر في هذا الباب حديث أرسطو عن التطهير في التراجيديا؛ فالبطل التراجيدي في النهاية رجل نبيل يقع ضحية الأقدار القاسية، وما يؤثر في المتلقي هي مبادئ الصياغة الجمالية²⁵ في التراجيديا: القصة - الموسيقى - الحوار - التصوير...
خاتمة:

بعد الفراغ من تحليل النماذج المتقدمة من صور الذات المتكلمة من منظور حجاجي - أسلوبى، سنقدم بعض الملاحظات التي نرى أنها تستحق التفاعل وتعميق المناقشة:
- يعد "الإيتوس" أحد مناهل الحجاج في الخطاب إلى جانب "الباتوس" و"اللوغوس".
ومهذه الفهم تكون صورة الذات المتكلمة حجة في حد ذاتها، غير أنها تحتاج إلى حجج من النوع الأسلوبى - وهذا ما وقفنا عليه تطبيقيا في تحليلنا رسائل الجاحظ - تضمن لها قوة التشكل وفعالية التأثير.

- أدت الوجوه الأسلوبية في مقام تشكيل "إيتوس المتكلم" أدوارا هامة جدا، نذكر منها إثبات المحاسن بواسطة التصوير الاستعاري، والوصف، والنفي والاستفهام... ولا تقتصر وظيفة الأسلوب على الإثبات فقط، بل تتعدى ذلك إلى تلميع المحاسن وتفخيمها في عين المخاطب.

- يشكل مقام المقدمة الموقع المناسب لتشكيل صورة الذات المتكلمة. فالحجاج الذي يُصاغ في مقدمة الخطاب تكمن قوته الإقناعية في إعداد المخاطب لتلقي الخطاب على نحو جيد؛ عبر ترضيته، وتقليص المسافة الأخلاقية والقيمية والتواصلية، بينه وبين المتكلم.
- يختار الجاحظ طبيعة الصورة التي سيظهر بها في الخطاب تبعا لعلاقته بالمخاطب والمقاصد التي يروم الوصول إليها. ولأن الجاحظ ينتمي إلى الثقافة العربية الإسلامية، فإن

البهاء الأسلوبى للإيتوس، **في نماذج من رسائل الجاحظ** _____ مجلة فصل الخطاب
صوره الذاتية في الخطاب تفاعلت مع قيم هذه الثقافة الأخلاقية. وهذا ما يؤكد أن العملية
الحجاجية لا تنفصل عن واقعها المجتمعي في جميع مظاهره.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1 انظر: هشام الريفى: الحجاج عند أرسطو. نُشر ضمن كتاب "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم". (تأليف مشترك): فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب منوبة-تونس، 1998. ص: 146.
- 2 يقول حاتم عبيد عن حجاجية الإيتوس القبلي (قبل نشوء الخطاب): " من يقدر على إقناعنا بالفضيلة غير الأفاضل؟ وهل يؤثر فينا من ينهى عن خلق ويأتي مثله؟ أليست الحجة التي يؤكدنها الخطيب بسلوكة لأجدى وأنفذ من الحجة التي يؤكدنها بأقواله". في تحليل الخطاب. دار ورد للنشر والتوزيع (الأردن)، ط 1، 2013، ص: 98.
- 3 محمد مشبال. في بلاغة الحجاج، نحو مقارنة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات. دار كنوز المعرفة (الأردن). ط 1، 2016. ص. 169.
- 4 رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 1، 1979. ج 3. ص: 303_351.
- 5 المصدر السابق. ص: 308
- 6 رسائل الجاحظ. ج 1. ص: 325_332.
- 7 المصدر السابق. ص: 325.
- 8 هذا ما يقرره الجاحظ نفسه - على سبيل الإيحاء- في نهاية الرسالة، يقول بعد إيرده القصيدة: "وكيفما تصرّفت بي الحال فإني لم أخرج من جهد المجتهدين الراغبين المخلصين. فإن وقعت هذه القصيدة والتي قدمنا قبلها بالموافقة فالحمد لله". المصدر السابق. ص: 332.
- 9 المصدر السابق. ص: 325.
- 10 المصدر السابق. ص: 328.
- 11 كبيدي فارغا: البلاغة وإنتاج النص. ترجمة: محمد العمري. مجلة البلاغة وتحليل الخطاب. مطبعة النجاح الجديدة (الدار البيضاء). ع 10، 2017. ص: 30.
- 12 رسائل الجاحظ. ج 3. ص: 285-300.
- 13 المصدر السابق. ص: 287.

- 14 انظر حديث بدر الدين الزركشي عن " التكرار على وجه التأكيد". البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار التراث، ط3، 1984. ج.3. ص: 10_09.
- 15 رسائل الجاحظ. ج.4. ص: 229 _ 240
- 16 المصدر السابق. ص: 231.
- 17 نقصد التعبير الحقيقي التداولي وليس دلالة الكلمة في المعجم، والاستعارة، كما هو معلوم، تعدل عن المعنى المتداول للعبارة إلى المعنى المجازي.
- 18 جميع صور الإيتوس التي عالجنها في هذا المحور مأخوذة من مقدمات الرسائل المحللة.
- 19 هذا الهدف ليس غريبا عن التفكير البلاغي عند الجاحظ؛ فهو من تحدث (الجاحظ) في مناسبات عديدة عن الاستراتيجيات التي تجذب السامع إلى الخطاب وتدفع عنه السأم والملل وتبقي نشاطه حيا، وهو من حذر من التطويل والتعقيد والترابة وبقية الظواهر الكلامية السلبية التي تنفر المتلقي وتزهده في القراءة. والجاحظ من أشد الناس إيمانا بأن الكلام لا خير فيه إذا مله سامعه.
- 20 رسائل الجاحظ. ج.3. ص: 113.
- 21 المصدر السابق. ص: 113.
- 22 رسائل الجاحظ. ج.1. ص: 231-278.
- 23 المصدر السابق. ص: 231.
- 24 المصدر السابق. ص: 232.
- 25 ينقل إدريس جبري عن نيتشه (كتابه: ميلاد التراجيديا) أن الموسيقى (وهي العنصر الممثل للصياغة الجمالية في التراجيديا) "تعطي للأسطورة معنى ميتافيزيقيا أكثر نفاذا، وأكثر إقناعا. إذ لا يمكن للكلمة ولا للمشهد أن يحققا هدفها إلا بمساعدتها". مفهوم التراجيديا عند نيتشه. مقال منشور في موقع www.Aljabriabed.net. آخر زيارة: 09_03_2019.

المصادر والمراجع:

- 1 إدريس جبري: مفهوم التراجيديا عند نيتشه. مقال منشور في موقع www.Aljabriabed.net.
- 2 بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار التراث، ط3، 1984.
- 3 الجاحظ (عمرو بن بحر): رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1، 1979.
- 4 حاتم عبيد: في تحليل الخطاب. دار ورد للنشر والتوزيع (الأردن)، ط 1، 2013.

- 5 كبيدي فارغا: البلاغة وإنتاج النص. ترجمة: محمد العمري. مجلة البلاغة وتحليل الخطاب. مطبعة النجاح الجديدة (الدار البيضاء). ع 10، 2017.
- 6 محمد مشبال. في بلاغة الحجاج، نحو مقارنة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات. دار كنوز المعرفة (الأردن). ط1، 2016.
- 7 هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو. نُشر ضمن كتاب "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم". (تأليف مشترك): فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب منوبة-تونس، 1998.